تخمينات حول بداية التاريخ البشري

إيمانويل كانط

ترجمة: محمد منادي إدريسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

تخمينات حول بداية التاريخ البشري

إيمانويل كانط

ترجمة: محمد منادي إدريسي

* نشرت هذه المقالة في Berlinische Monatsschrift في يناير 1786، ولها صلة وثيقة بسجال كانط مع هردر.

* الهوامش المسبوقة بأرقام للمؤلف، والهوامش المسبوقة بالحروف من إضافة المترجم.

لا ريب في أنّه يجوز إقحام تخمينات هنا أو هناك في **مسار العرض التاريخي** لملء الثغرات في الوثائق، ذلك أنّ ما يكون سابقًا بوصفه سببًا بعيدًا، وما يعقبه لاحقًا بوصفه مسبَّبًا يمكن أن يرشدانا بيقين كاف إلى اكتشاف الأسباب الوسيطة ابتغاء جعل الانتقال معقولاً. أمّا بناء تاريخ برُمَّته على تخمينات، فلا يبدو أمرًا أفضل من وضع الخطوط العريضة لرواية. إنّ تاريخا كهذا لن يكون جديرًا حتى بحمل اسم **تاريخ تخميني**، بل اسم **الخيال القَصَصي** على أكثر تقدير. بيد أنّ ما لا يحق لنا أن نتجرأ على فعله بخصوص مجرى تاريخ الأفعال البشرية يمكننا مع ذلك أن نُقْدِم عليه مستعينين بتخمينات، بصدد البدايات الأولى لهذا التاريخ طالما أنّ الأمر يتعلق عندئذ بعمل الطبيعة؛ فهذه البدايات لا يجوز استخراجها من المخيلة، بل يمكن استخلاصها من التجربة إذا سلمنا بأنّ الطبيعة ما كانت في هذه البدايات الأولى أحسن ولا أسوأ مما نجدها عليه اليوم، وتلك مسلمة موافقة لتمثيل الطبيعة[1] وليس فيها أي مجازفة. إنّ تاريخ التفتح الأول للحرية ابتداءً من استعداداتها الأصلية الكامنة في طبيعة الإنسان أمر مختلف تمامًا إذن، عن التاريخ اللاحق لتقدم الحرية، والذي لا يمكن تأسيسه إلا على وثائق.

بيد أنّ التخمينات لا ينبغي أن تبالغ في مزاعمها تصديق الغير، بل يجب أن تُعتبر بمثابة تمرين للخيال المرفوق بالعقل ابتغاء تَسْلِية الذهن وصِحّته، لا أن تُعتبر أمرًا جِدِّيًّا. كما لا يمكن أن تقاس كذلك بهذا التاريخ الذي هو معتمد ومقبول فيما يخص الأحداث نفسها، باعتباره سردًا موثقًا، والذي يستند التحقق منه إلى أسس أخرى مختلفةٍ عن فلسفة الطبيعة فحسب.

ونظرًا لأنني بالضبط أُوَرِّط نفسي هنا في رحلة مُتْعَةٍ لا غير، أستطيع أن أطالب بحُظْوَةِ أن أستعمل نصًّا مقدسًا باعتباره خريطةً، وأن أتصور مسار رحلتي الذي أجتازه محمولاً على أجنحة الخيال، ولكن مع الإبقاء على خيطٍ مرشدٍ موصولٍ عن طريق العقل بالتجربة، ويهتدي بالضبط إلى الطريق نفسها المرسومة في هذا النص من زاوية تاريخية. فَلْيفتح القارئ صفحات هذا النص (سِفْرُ التكوين، من II إلى VI) ولْيَتَحَقق خطوة خطوة مما إذا كان الطريق التي تسلكها الفلسفةُ معتمِدةً على مفاهيم تتفق مع الطريق التي تدل عليها القصة.

إذا أردنا أن لا نَضِلَّ في مجرد تخمينات ينبغي أن نتَّخذ منطلقًا لنا ما لا يمكن للعقل البشري بتاتًا أن يشتقه من أسباب طبيعية سابقة، أي **وُجودَ الإنسان** إذن، بل وينبغي النظر إلى هذا وقد **بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى**، إذ يجب أن يكون في غنًى عن رعاية الأم، و**يعيش مع زوجٍ** كي يتمكن من إنجاب نوعه، ولكنه زوج

[1]. أي المماثلة الموجودة بين الفرضيات العلمية المتعلقة بالطبيعة كما تَمْثُلُ أمامنا والتخمينات المنسوجة عن أصل الطبيعة، وهذه المماثلة تفترض ثبات الطبيعة. فالعلاقات بين الظاهرات الطبيعية لا تتطور مع مجرى التاريخ. بناء على هذه المسلمة يمكن إعادة بناء بدايات التاريخ البشري فننسب إلى إنسان البدايات العمليات الأكثر أولية وعمومية والتي نجدها عند جميع الأفراد أيا يكن انتماؤهم الثقافي والتاريخي.

وحيد فقط، حتى لا تنشب الحرب مباشرة بين بَشَرٍ يعيشون متجاورين إلاّ أنهم غرباء عن بعضهم البعض، وحتى لا تُتَّهم الطبيعة بأنّها بفعل تنوع الأرومات لم تول أهمية للتنظيم الأفضل من أجل الاجتماعية، وهي الغاية الأعلى للوجهة البشرية، ذلك أنّ وحدة الأسرة التي وجب أن يَتَحَدَّر منها البشر جميعًا كانت بلا ريب التدبير الأنسب لهذا الغرض. وأنا أضع هذا الزوج في مكان آمن من هجمات الضواري حيث وفرت له الطبيعة القوت الوفير، أي في جَنّة إن صح القول، وتحت سماءٍ جَوُّها معتدلٌ على الدوام. ثم إنّي لن أنظر في أمره إلا بعد أن يكون قد خطا خطوة كبيرة في فن استعماله لقواه، وتبعا لذلك لن أنطلق من طبيعته في حالتها البدوية تمامًا. إذ لو كنت أقدمت على ملء هذه الفجوة، التي ربما تَسَعُ مدة زمنية بالغة الطول، لوجد القارئ في ذلك إفراطًا في التخمينات وتفريطاً في الراجحات. كان الإنسان الأول إذن قادرًا على **الوقوف منتصبًا** وعلى **المشي**. وكان **يُجيد الكلام** (انظر سفر التكوين، II، 2[2])[3]، بل و**الخطاب**، أي الكلام عبر الربط بين مفاهيم (الآية 23)[4]، و**التفكير** تبعًا لذلك. كان عليه أن يكتسب هذا القدر من أضرب المهارة كلها بنفسه (إذ لو كانت مفطورة لكانت كذلك وراثية، وهو ما تناقضه التجربة). ومع ذلك أُسَلِّم بأنّه حاصل عليها من قبل، حتى لا آخذ في اعتباري لسلوكه إلا تفتح المكون الخلقي، الذي يفترض بالضرورة تلك المهارة.

كان على الغريزة، وهي **صوت الله** الذي تنصاع له الحيوانات كلها، كان عليها وحدها في البداية أن ترشد مخلوقنا الحديثَ العهْدِ. لقد أباحت له أمورًا يتغدى بها وحظرت عليه أمورا أخرى (III،2-3)[5]، لكن ليس من الضروري افتراض وجود غريزة خاصة اختفت اليوم من أجل هذا الدور. لربما كانت حاسة الشم فقط كافية لذلك، بقرابتها مع آلة الذوق، وكذا الوشيجة المعلومة بين هذا الأخير والجهاز الهضمي. وهكذا كانت له على نحوٍ ما القدرة على استشعار صلاح طعامٍ ما للاستهلاك أو عدم صلاحه، على النحو الذي ما زالت توجد عليه اليوم. لا بل يمكن افتراض أنّ هذه الحاسة ما كانت عند الزوج الأول أَحَدَّ مما هي عليه حاليًّا. ففيما يخص قدرات الإدراك الحسي نحن نعلم أي فارقٍ هامٍّ يفصل من لا تشغلهم إلا حواسهم عن من تشغلهم بالإضافة إلى ذلك أفكارهم، فيتشاغلون عن أحاسيسهم.

---

[2]. كان لابد أن تدفع **الحاجة إلى التواصل** الإنسانَ الذي كان ما يزال متوحدًا إلى أن يعلن وجودَه للكائنات الحية الخارجة عنه، وخصوصا لتلك التي تُصْدر صوتاً يستطيع أن يحاكيه وأن يستعمله اسمًا فيما بعد. وما زلنا نلاحظ أثرًا مشابها لهذه الحاجة عند الأطفال الذين يزعجون القسم المفكر من الجماعة بالضجيج والصراخ والصفير والغناء وأوضاعٍ صاخبة أخرى (وكذلك بخواطر يكشفونها بصوت عال في الغالب). إذ لا أرى باعثا آخر على هذا السلوك غير إرادةِ إعلانِ وجودهم في ما حولهم.

[3]. "فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وأما لنفسه فلم يجد مُعِينا نَظِيرَه."

[4]. "فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنّها من امرئ أخذت".

[5]. "فقالت المرأة للحية: من ثمرة شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا."

وطالما انصاع الإنسان عديمُ الخبرةِ لنداء الطبيعة كان على ما يرام. غير أنّ العقل بدأ باكرًا في الاستيقاظ، وسرعان ما عَقَدَ مقارنة بين ما تَمَّ استهلاكه وما تَمَثَّلَتْهُ حاسة مختلفة عن تلك المقترنة بالغريزة - حاسة البصر مثلاً - بوصفه شبيهًا بما تستهلكه عادة، فسعى إلى توسيع معرفته بالأطعمة إلى ما وراء حدود الغريزة (III، 6)، وقد أمكن لهذه المحاولة أن تحظى بالنجاح مصادفةً مع أنّ الغريزة لم تَحُض عليها، على أنّ تلك ما كانت تناقض هذه. وإنَّها لَخِصِّيصةٌ للعقل بالضبط أنّه يستطيع، مستعيناً بالمخيلة، أن يختلق رغبات لا يوجد ثمة غريزة طبيعية تستند إليها، لا بل تتعارض معها أيضا. وقد ساهمت هذه الرغبات، المسماة ابتداءً بلفظ **الشهوة**، شيئًا فشيئًا في تفريخ حشدٍ كبيرٍ من الميول لا تدعو إليها الحاجة، لا بل هي زيادة على ذلك مضادة للطبيعة، ولفظ **الفجور** أليق بها. ولربما كانت مناسبة التمرد على الغريزة الطبيعية تافهةً في البداية، غير أنّ نجاح هذه المحاولة الأولى: أي وعيه بأنّ عقله له قدرة على تخطي الحواجز التي حُبِسَت جميع الحيوانات داخلها، كان هامّاً، بل وحاسمًا لنمط العيش. وهكذا على فرض أنّه ما كان ثمة إلا فاكهة كان مظهرها، بتشابهه مع فواكه أخرى لذيذةٍ استُطِيبَت من قبل، يغري بالمحاولة، وعلى فرض أنّه انضاف إلى ذلك أيضا مِثالُ حيوانٍ طبيعتُه كانت مهيأةً لاستهلاك هذه الفاكهة، بينما كانت ضارةً للإنسان، وتبعًا لذلك كانت في هذا الأخير غريزةٌ طبيعيةٌ تعارض هذا الاستهلاك، فقد أتاح ذلك للعقل الفرصة الأولى كي يجادل صوت الطبيعة (III، 1)[6]، ويقوم بالمحاولة الأولى لخِيَارٍ حُرٍّ رغم معارضة هذه الطبيعة. ولأنّ هذه المحاولة كانت هي الأولى فإنّها لربما كانت لِتُحقق ما كان يأمله الإنسان منها. ومهما قَلَّلْنا من شأن الضرر الناتج عن ذلك كما نشاء، فيبقى أنّ عيني الإنسان قد انفتحتا في هذه المناسبة (III،7)[7]. لقد اكتشف القدرة على أن يختار لنفسه نمط عيشه وأن لا يكون مقيَّدًا بنمطِ عيشٍ وحيدٍ مثل الحيوانات الأخرى. غير أنّ الرضى الذي أمكن أن يُشْعِره به في الحال اكتشافُ هذا الامتياز كان لا بد أن يعقبَه الغمُّ والقلقُ على الفور. إذ كيف له، وهو الذي لا يعلم شيئًا بعد عن الخصائص الخفية والآثار البعيدة لأيّ شيء، أن يستخدم هذه القدرة المكتشفة حديثًا؟ على شفير الهاوية تقريبًا كان يقف: إذ خارج الموضوعات الخاصة برغبته والتي كانت الغريزة حتى ذلك الحين تُعَيِّنُها له، أتيحت له موضوعات أخرى لا تُحصى عددًا، وأمامها لم يكن يدري بتاتًا بَعْدُ كيف يختار. وما أن استطاب هذه الحال من الحرية، صارت العودة إلى حال العبودية (تحت سلطان الغريزة) مستحيلةً منذ ذلك العهد.

إنّ أهم غريزة بعد غريزة التغذي التي بها تحفظُ الطبيعةُ كلَّ فردٍ هي **الغريزة الجنسية**، فبفضلها تعمل الطبيعة على حفظ أي نوع. لم يتأخر العقل في إظهار تأثيره هنا أيضًا حالما اسيقظ. لقد أدرك

[6]. "وكانت الحية أَحْيَلَ جميع حيوانات البرية التي عملها الرب، فقالت للمرأة: أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟"

[7]. "فانفتحت أعينهما وعلما أنّهما عريانان، فخاطا أوراق تينٍ وصنعا لهما منه مآزر"

الإنسان باكرًا أنّ الإثارة الجنسية، التي لا تقوم عند الحيوانات إلا على دافعٍ عابرٍ ودَوْرِي في غالب الأحيان، قابلةٌ عنده للتمديد، بل والزيادة تحت تأثير المخيلة التي تمارس تأثيرها باقتدار أكبر بلا ريب، وعلى نحو أكثر دوامًا وانتظامًا كذلك، كلما **انفلت الموضوع من الحواس** أكثر، كما أدْرَكَ أن هذا يُجَنِّبُه التخمة التي يفضي إليها إشباع رغبةٍ حيوانيةٍ صرف.

كانت ورقة التين إذن حصيلةَ تَجَلٍّ للعقل أهمَّ بكثير من التجلي الذي أثبته في الطور الأول من تطوره. فجَعْلُ ميلٍ ما أشدَّ وأكثر دواماً بحَجْب موضوعه عن الحواس يكشف عن الوعي بسيطرة العقل على الاندفاعات، وليس فقط - كما في الطور الأول - عن قدرةٍ على خدمتها على نطاق أكثر أو أقلّ اتساعًا. لقد كان **الرفض** الحيلةَ البارعةَ التي نقلت من المغريات الشهوانية فقط إلى المغريات المثالية، وشيئاً فشيئًا من الرغبة الحيوانية فحسب إلى الحب. ومع الحب صار الشعور بما هو ممتعٌ فحسب تذوقًا للجمال، وقد كان أولاً تذوقًا لجمال الإنسان، وصار فيما بعد تذوقًا لجمال الطبيعة أيضًا. ثم إنّ **الاحتشام** - وهو ميل إلى إثارة احترام الغير لنا عبر العوائد الحسنة (بسَتْرِ ما يمكن أن يثير الازدراء)، وأساسٌ أصيل لكل اجتماع حقيقي - كان العلامة الأولى لتشَكُّل الإنسان بما هو مخلوق خلقي. كانت تلك بدايةً متواضعةً، غير أنّ أثرها كان بعيد المدى عندما أعطت توجيهًا جديدًا بالكامل لطريقة التفكير، وهي أهم من كل السلسلة اللامحدودة من التطورات الثقافية المتعاقبة.

كان الطور الثالث الذي اجتازه العقل، بعد أن كان ممتزجًا بالحاجات الحسية المباشرة الأولى، هو **انتظار المستقبل** بتَمَعُّنٍ. هذه القدرة، لا فقط على الاستمتاع باللحظة الحالية، بل على جعل الزمن الآتي ماثلاً، واستحضاره حتى وإن كان بالغ البعد، هي العلامة المميزة والحاسمة على سمو الإنسان من أجل التأهب لغايات بعيدة وفقًا لوجهته. ولكنّها في الوقت نفسه أيضًا مَعينٌ لا يَنْضَب من الهموم والشواغل التي يثيرها المستقبل المريب، والحيوانات مُعْفاةٌ منها (III، 13-19)[8]. لقد توقَّع الرجل، الذي كان عليه أن يُؤمِّن قُوتَهُ وقوت زوجه وأبناء سَيَرَوْن النور، توقَّع صعوبة عمله المتزايدة على الدوام، وأدركت المرأة الأعباء التي ألزمت الطبيعة بها جنسها، وانضافت إليها تلك التي كان من شأن الرجل، وهو الأقوى، أن يفرضها عليها. لقد أدركا معا برعبٍ ما يكمن في عمق المشهد بعد حياةٍ مُضْنِيَةٍ، وما يصيب الحيوانات كلها على نحو لا راد له، غير أنّه لا يشغل بالها، أعني الموت. ويبدو أنّهما امتنعا عندئذ عن استعمال العقل

[8]. "فقال الرب الإله للمرأة: "ما هذا الذي فعلت؟". فقالت المرأة: "الحية غرتني فأكلت". فقال الرب الإله للحية: "لأنّك فعلت هذا، ملعونةٌ أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه". وقال للمرأة: "تكثيرا أكثّر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا. وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك". وقال لآدم: "لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونةٌ الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكًا وحسكًا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنّك تراب وإلى تراب تعود"، ودعا آدم اسم امرأته "حواء" لأنّها أم كل حي".

الذي سبب لهما هذه الشرور كلها واعتبراه جُرْما. وقد كان بقاؤهما حيين في ذريتهما التي قد يكون مصيرها ربما أفضل، أو كذلك عيْشُهما في حضن أسرة من شأنها أن تخفف آلامهما، هو لربما الأفق الوحيد المواسي الذي يقوي من عزيمتهما. (III، 16-20).

تمثلت الخطوة الرابعة والأخيرة التي أنجزها العقل، مُتَمِّماً رفع الإنسان فوق المجتمع الحيواني، في أنه فَهِمَ (وإن على نحوٍ غامض فقط) أنّه كان **غاية الطبيعة**[9] تخصيصًا، وأنّه لا شيء مما يعيش على الأرض يُنازعه في هذا الحق. والمرة الأولى التي قال فيها للخروف: "الجلدُ الذي تحْمِلُه لم تمنحه الطبيعة لك، بل لي" ثم انتزعه منه وارتداه (III، 2)[10]، أدرك أنّ له، بسبب طبيعته، امتيازًا على الحيوانات كلها، ولم يعد يراها بعد ذلك نظيرةً له في الخلق، بل وسائلَ وأدوات وُضِعَت تحت تصرفِ إرادتِه ابتغاء بلوغ الغايات التي يضعها نُصْب عينيه. وهذا التمثل استلزم (على نحو غامض بلا ريب) مُقابِلَه: أعني أنّه لا حق له أن يقول مِثْلَ ذلك عن إنسان آخر، وأنّ عليه بالمقابل أن يُعِدَّه مشاركًا له على قدم المساواة في خيرات الطبيعة. وهذا ما هيأ من بعيد للحدود التي وجب أن يفرضها العقل لاحقًا على إرادته مراعاة لنظرائه، وهذا التحديد ضروري أكثرَ من المودة والحب لإنشاء المجتمع.

وهكذا بات الإنسان **متساويًا مع جميع الكائنات العاقلة الأخرى**، من أي مقام كانت (III،22)[11]، أي في ما يخص زعمَه أنّه **هو ذاته غاية**، وادِّعاءَه الحق في أن يُقَدِّره الآخرون جميعًا باعتباره كذلك، وأن لا يستعمله أي شخص على أنّه مجرد وسيلة لأغراض أخرى. في ذلك، لا في العقل منظورًا إليه على أنّه أداة فحسب لإشباع الميول المختلفة، يمكن أساس المساواة اللامحدودة[12] للإنسان حتى مع كائنات عليا قد تفوقه من ناحية أخرى بما لا يقاس فيما يتعلق بخيرات الطبيعة، ولكنَّ ذلك لا يُخَوّل أيّا منها الحق في أن يتصرف فيه ويستعمله كما يشاء. إن هذا الطور مقترن إذن بطرده خارج حضن الطبيعة الأمومي، وهذا تغير لا ريب في أنه يُشَرِّفُه، ولكنه في الوقت نفسه مليء بالمخاطر، طالما أنّ الطبيعة قد أخرجته من حالة البراءة والسكينة الطفولية، لكأنّما أُخْرِج من جنة كانت تُؤَمِّن حاجاته دون أن يبذل جهدًا في ذلك (III،

---

[9]. المسار الذي قاد الإنسان إلى اعتبار نفسه غاية الطبيعة مزدوج: أولاً كانت الطبيعة على نحو ما بمثابة وسيلة له، إذ دفعته إلى الخروج من حالة البراءة الأولية، وثانيًا، يمكن للإنسان عن طريق مكنته على وضع غايات أن يعتبر الطبيعة بمثابة وسيلة على نحو مقصود.

[10]. "وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما".

[11]. "وقال الرب الإله: "هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا، ويأكل ويحيا إلى الأبد."

[12]. إنما يمكن اعتبار الإنسان خارجًا عن الطبيعة وغاياتها القصوى بعقله العملي، وبالتالي من حيث هو كائن خلقي، وليس فقط لأنّه يتمتع بذكاء في البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق سعادته. نجد هنا تمييزًا بين العقل الأداتي الذي يقتصر على التفكير في الوسائل الأنجع لتلبية الرغبات وإشباع الميول، والعقل العملي الذي يحدد الغايات القصوى للفعل.

23)[13]، ورَمَتْ به إلى العالم الواسع حيث كانت الكثير من الهموم والمشاق والشرور غير المعروفة في انتظاره. ولاحقًا ستنتزع منه مشاق الحياة مرارًا أمنية فردوس اختلقته مخيلته، وفيه كان يسعه أن يقضي حياته في الحُلم والمرح في تبطل هادئ وسلام دائم. ولكن بينه وبين مَقَرِّ الْمُتَعِ المتخيَّل ذاك ينتصب عقلٌ لا يَكِلُّ ولا يمل ويدفعه دفعًا إلى تطوير القدرات الكامنة فيه، ولا يتيح له أن يسقط من جديد في حالة البداوة والسذاجة التي أخرجه منها (III، 24)[14]، ويحثه على تحمل المشاق التي يَكْرَهُها بصبر، والركض وراء المظاهر البراقة التي يزدريها، ونسيان الموت الذي يرتعب منه فَرَقا، لفائدة هذه الأمور التافهة التي يخشى فقدانها أكثر.

ملاحظة

ينتج عن هذا العرض لبدايات التاريخ البشري أنّ خروج الإنسان من الفردوس الذي يقدمه له العقل على أنّه المُقام الأول لنوعه، ما كان إلا نقلة من حالة بداوةِ[15] مخلوقٍ حيواني صِرْف إلى حالة الإنسانية، نقلة من الحدود التي تبقيه الغريزة داخلها إلى القيادة التي يمارسها العقل، وباختصار، من وصاية الطبيعة إلى حالة الحرية. والسؤال عن ما إذا كان الإنسان قد غَنِمَ أم خَسِر من جراء هذا التغير لم يعد يُطرحُ بعدئذ، إذا أخذت وجْهَةُ نوعِه في الاعتبار، وهي تكمن حصرًا في **التقدم** نحو الكمال. وليس بِأَمْرٍ ذي بالٍ أن تكون المحاولات الأولى التي بذلتها سلسلة طويلة من أجيال نوعه ابتغاء الوصول إلى هذه الغاية، جهودًا غير مثمرة. بيد أنّ هذه المسيرة التي تُمَثِّل بالنسبة إلى النوع تقدمًا نحو الأفضل ليست كذلك بالضبط بالنسبة إلى الفرد. لم يكن ثمة أمرٌ ولا نهيٌ، ولا انتهاكٌ تبعًا لذلك، قبل استفاقة العقل. ولكن عندما شَرَعَ في ممارسة تأثيره، وجابه الحيوانية في كامل جبروتها مع أنّه كان ضعيفًا، عندئذ كان لابد أن تظهر شرورٌ، بل وأسوأ من هذا في طور العقل المهذب ظهرت رذائل كانت غريبة تماماً عن حالة الجهل، أي عن حالة البراءة. كانت الخطوة الأولى خارج هذه الحالة **سقوطًا** إذن من زاوية النظر الخلقية. وعواقب هذا السقوط كانت من زاوية النظر الفيزيائية ظهورَ حشْدٍ من الشرور غير المعروفة حتى ذلك الحين على مسرح الحياة، وبالتالي **عقابًا**. يبدأ تاريخ الطبيعة بـ**الخير** إذن، لأنّه **عمل الله**، ويبدأ تاريخ **الحرية** بالشر، لأنّه **صنيع الإنسان**. لقد كان هذا التغير خسارة بالنسبة إلى الفرد الذي لا يفكر إلا في نفسه عند استعماله حريتَه. أما بالنسبة إلى الطبيعة التي تسعى إلى الغاية التي ادخرتها للإنسان واضعةً نُصْبَ عينيها النوع،

[13]. "فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها."

[14]. "فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة."

[15]. بداوة الأمر: أول ما يبدو منه ويظهر، من بدا، جفا، ظهر، سكن البادية، (والبادية خلاف الحاضرة. ما يهمنا من دلالات الكلمة هة معاني ابتداء الأمر والجفاء والفظاظة. في البدء لم يكن الإنسان شيئا مذكورًا، لم يكن إنسانًا. فإنسانيته ليست معطى ابتداء، ولا هي هبة طبيعية، بل هي غاية نهائية يسير نحوها مقاوما حيوانيته وطبيعته.

فقد كان كسباً. كان الفرد محقًّا في أن يُلْقِي على كاهله مسؤولية كافة المصائب التي يكابدها، وكل الشر الذي يقترفه، ولكنه - بوصفه عضوًا في الكل (في النوع) - كان في الوقت نفسه محقًّا في أن يُقدِّر حكمة هذا التدبير وغائيته ويعجب بها.

وعلى هذا النحو يمكن أيضا التوفيق بين دعاوى **جون جاك روسو** الشهير - التي كانت عُرْضة لسوء الفهم في الغالب ومتناقضة ظاهريًّا - وبينها وبين العقل. لقد بيّن بحق في عمليه عن **تأثير العلوم** و**تفاوت البشر** التعارض المحتوم بين الثقافة وطبيعة الجنس البشري بما هو نوعٌ فيزيائيٌ يجب على كل فردٍ أن يصل في نطاقه إلى وجهته تمامًا. أما في كتابيه **إميل** و**العقد الإجتماعي**، وفي كتابات أخرى فسعى إلى حلّ هذا المشكل الأصعب: كيف يجب أن تتقدم الثقافة كي تُنمِّي على الوجه الأنسب استعدادات الإنسانية بما هي نوع خلقي، حتى تحقق وجهتها، بحيث لا تتعارض الثقافة مع الإنسانية بما هي نوع طبيعي؟ فمن هذا التعارض تولد كافةُ الشرور الحقيقية (مادامت الثقافة وفقا للمبادئ الحقة لتربية تُكَوِّنُ في الوقت نفسه الإنسانَ والمواطنَ لم تبدأ لربما حقًّا بعد، ولا هي بالأحرى اكتملت)، وهي الشرور التي تُلقي بكَلْكَلِها على الحياة الإنسانية، وجميعُ الرذائل التي تشينها[16]. بينما الدوافع التي تُحَرّض على هذه الرذائل، والتي تُحَمَّل

---

[16]. لن أقدم إلاّ بعض الأمثلة على هذا التعارض بين توق البشرية إلى وجهتها الخلقية من جهة، والخضوع الثابت للقوانين التي وُضعت في طبيعتها ابتغاء الحالة البدوية والحيوانية من جهة أخرى.

لقد حددت الطبيعة مرحلة الرشد، أي مرحلة الإنجاب والقدرة عليه في سن السادسة عشرة إلى السابعة عشرة تقريبًا، وفي هذه السن يصير المراهق رجلاً بالمعنى الدقيق في حالة البداوة الطبيعية، إذ يمتلك عندئذ القدرة على تأمين حاجاته وإنجاب نوعه، بل وتأمين حاجات ذريته وزوجه أيضًا. وقد يسرت بساطة الحاجات هذه المهمة له. أما في الحالة المتمدنة، فإنّ هذه المهمة تقتضي الكثير من الوسائل، إن على مستوى المهارة أو على مستوى الظروف الخارجية الملائمة، بحيث يتم تأخير هذه المرحلة، بالمعنى المدني للفظ، بمعدل عشر سنوات على الأقل. غير أنّ الطبيعة لم تغير السن الطبيعي للبلوغ كي تلائمه مع تقدم تهذيب المجتمع، بل تشبثت بعناد بالقانون الذي أعدته للحفاظ على النوع البشري بما هو نوع حيواني. وقد نتج عن ذلك ضرر محتوم سببته الآداب للغائية الطبيعية، والعكس صحيح. فالإنسان الطبيعي يكون بالغًا في سن معينة يكون الإنسان الاجتماعي فيها (دون أن يكف لأجل ذلك عن أن يكون رجلًا بحسب الطبيعة) مازال مراهقًا، بل طفلا: إذ يمكن أن ندعو بهذا الاسم من ليس قادرًا على الرغم من سنه (في الحالة المدنية) حتى على تأمين حاجاته الخاصة، ناهيك عن حاجات ذريته، مع أنّه حائز على غريزة الإنجاب والقدرة عليه، والاستجابة لنداء الطبيعة. ذلك أنّ الطبيعة لم تُجهّز بالتأكيد المخلوقات الحية بغرائز وقدرات كي تعمل على كبتها وخنقها. وعليه، فإنّ هذه الاستعدادات لم تكن ترمي بتاتا إلى الحالة المتمدنة، بل فقط إلى حفظ النوع بما هو نوع حيواني. وهكذا تدخل حالة التمدن حتما في تعارض معها، وهو تعارض لا يمكن في العادة أن يحله نظام مدني كامل (الهدف الأكثر رفعة للتمدن)، مادامت هذه الفترة حاليًّا تملأها في العادة رذائل وما يعقبها من ألوان البؤس البشري المتنوعة.

ثمة مثال آخر يشهد على صحة هذه القضية القائلة إنّ الطبيعة غرزت فينا استعدادين موجهين لغايتين متباينتين، أحدهما للإنسانية بما هي نوع حيواني، والآخر لهذه الإنسانية نفسها بما هي نوع خلقي، وهو قول **إبقراط "الفن طويل والحياة قصيرة"**. عند فرد واحد ذي ذهن أُعِدَّ لهذه الغاية، ومن شأنه أن يبلغ الرشد الحقيقي للحكم بفضل الدربة الطويلة وتراكم المعارف، كانت العلوم والفنون ستشهد تطورًا أكبر من ذاك الذي من شأن أجيال من العلماء المتعاقبين كلهم أن يحققوه، شريطة أن يحتفظ ذهن هذا الفرد بطاقته الفتية طيلة الزمن الممنوح لهذه الأجيال بكاملها. والحال أنّ الطبيعة حددت مدة حياة الإنسان انطلاقًا من زاوية أخرى غير زاوية تقدم العلوم. فحينما يكون الذهن الموهوب قاب قوسين أو أدنى من أكبر الاكتشافات التي تجعله مهارته وخبرته يأمل في حصولها تأتي الشيخوخة، فيضعف الذهن، ويكون عليه أن يدع لجيل ثان (يبدأ من جديد من الصفر، وعليه أن يسلك من جديد كل الطريق الذي اجتيز من قبل) هَمَّ القيام بخطوة إضافية على درب تقدم الثقافة. يبدو أن مسيرة النوع البشري نحو تحقيق وجهته بكاملها تتقطع على الدوام لهذا السبب، وتتعرض باستمرار لخطر السقوط من جديد في حالة البداوة. وليس من دون مبرر أنّ الفيلسوف اليوناني اشتكى قائلًا: **إنّه لأمر يوسف له أنّ الموت مكتوب علينا حينما نشْرَعُ في فهم كيف يجب علينا أن نعيش.**

وكمثال ثالث نذكر **التفاوت** بين البشر، ولا أقصد التفاوت في الهبات الطبيعية والحظوظ، بل التفاوت في **حقهم البشري** الكوني، وهو تفاوت تذمّر **روسو** منه وكان مصيباً، غير أنّه لا يمكن أن ينفك عن الثقافة طالما أنّ هذه تتقدم دون خطة (وهذا أمر محتوم أيضًا لحقبة طويلة). ثم إنّ الطبيعة لم تجعل هذا التفاوت بالتأكيد وجهةً للإنسان، مادامت قد منحته الحرية والعقل كي لا يَحُدّ هذه الحرية بأي شيء آخر غير شرعيته الكونية، ويتعلق الأمر هنا بالتوافق الخارجي مع القانون الكوني الذي يسمى بـ**الحق المدني**. كان الإنسان مطالبًا بانتشال نفسه من حالة بداوة استعداداته الطبيعية بوسائله الخاصة، وأخذ حِذْره عند التعالي عليها من مناوأتها. وهذا لون من المهارة ليس له أن يأمل في اكتسابه إلاّ متأخرًا، وبعد محاولات كثيرة غير مثمرة، وأثناء ذلك تئِنُّ البشرية تحت وطأة الشرور التي تتسبب فيها لنفسها بعدم خبرتها.

لها عندئذ المسؤولية، حسنةٌ في ذاتها ومناسبةٌ من حيث هي استعدادات طبيعية لغاياتها الخاصة. غير أنّ تقدم الثقافة يُلْحِق الضرر بهذه الاستعدادات، وهي التي ما كانت مُعَدَّةً إلا لحالة الطبيعة، كما أنّها هي أيضًا تعود فتلحق الضرر بذلك التقدم، إلى أن يصير الفن من جديد، وقد بلغ كماله، طبيعةً، وهذه هي الغاية الأخيرة للوجهة الخلقية للنوع البشري.

نهاية التاريخ

كانت بداية الحقبة اللاحقة هي الوقت الذي انتقل الإنسان فيه من عهد الخمول والسلم إلى عهد **العمل والشقاق** الذي كان تمهيدًا للاتحاد في مجتمع. وهنا يجب علينا أن نقفز من جديد قفزة كبرى، وننقل الإنسان دفعة واحدة إلى حقبة كان في حوزته فيها حيوانات داجنة ونباتات كان يستطيع هو نفسه تكثيرها عن طريق البذر والزرع كي يقتات منها، (IV، 2)[17]، إلاّ أنّ الانتقال من حياة الصياد البدائية في هذا الطور الأول، ثم من الحياة الهائمة لملتقط الجذور والثمار إلى الطور الثاني كان لابد أن يتم ببطء كبير. وعندئذ، ما كان ثمة مفر من بزوغ الشقاق بين بشر كانوا حتى ذلك الحين يعيشون في سلام متجاورين، وذلك ما أفضى إلى انفصالِ من اختلفت طرائق عيشهم وتشتتِهم على وجه الأرض. ليست **حياة الرعي** حياة خمول فقط، بل هي أكبر ضمانة لأسباب العيش، إذ لا يمكن أن يَقِلَّ الْكَلَأُ على أراضٍ شاسعة غير مأهولة. وفي مقابل ذلك، فإنّ **الفلاحة** أو الزراعة شاقان جدًّا، وخاضعان لتقلبات الأحوال الجوية، وتبعًا لذلك غير مأمونين، ثم إنّهما يتطلبان سكنًا قارًّا، ومِلكية الأرض، وقوةً كافية لحمايتها. أما الراعي، فقد مَقَتَ هذه المِلكية التي تَحُدُّ من حرية الرعي. وفيما يخص المسألة الأولى بدا الفلاح مُحِقًّا في شعوره بالحسد نحو الراعي بوصفه حظي برعاية السماء أكثر منه.(IV، 4)[18]. لقد انزعج الفلاح في الواقع أيّما انزعاج طالما بقي الراعي مجاورًا له، لأنّ القطيع وهو يرعى لا يُبْقي على مزروعاته. وإنّه لمن السهولة بمكان بالنسبة إلى الراعي أن يبتعد، بعد تَسَبُّبِه في الخسائر، صحبة قطيعه ويتملص من أي تعويض، لأنّه لا يخلف وراءه شيئًا لا يستطيع أن يجده كذلك في مكان آخر. ثم إنّ الفلاح هو من كان مضطرًّا إلى استعمال القوة لِاتِّقَاء هذه الأضرار التي ما كان الآخر يعتبرها غير مشروعة، وهو من وجد نفسه مُرْغمًا (مادام الداعي إلى العنف ما كان ليتوقف تمامًا) على أن يبتعد بقدر ما يستطيع عن الذين يعيشون حياة الرعي إن لم يشأ أن تضيع منه ثمار تعبه الطويل (IV،16)[19]. وهذا الانفصال هو سمة الحقبة الثالثة.

---

17. "ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعيا للغنم، وكان قابيل عاملا في الأرض".

18. "وحدث من بعد أيام أنّ قابيل قدم من أثمار الأرض قربانًا للرب، وقدم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه" (قَبِل الرب قربان هابيل الراعي ورفض قربان أخيه قابيل الفلاح).

19. "فخرج قابيل من لدن الرب، وسكن في أرض نود شرقي عدن".

تقتضي الأرض التي ينبغي استغلالها وغرسها (وخصوصًا بالأشجار)، من أجل استخراج أسباب العيش منها، الاستقرارَ في مساكن ثابتةٍ، وحمايةُ هذه الأرض من كل عدوان يتطلب عددًا من الناس يَمُدُّون لبعضهم البعض يد العون. ثم إنّ البشر، ما كان يمكنهم مع هذا النمط من العيش أن يتفرقوا أسرًا، بل كان عليهم أن يتجمعوا وينشئوا قُرىً (سميت خطأً مدنًا)، ابتغاء حماية ما يملكون من الصيادين المتوحشين أو جماعات الرعاة الرُّحَّل. وقد أمكن عندئذ تبادل الحاجات الأولية الضرورية للحياة، والتي اقتضى اقتناؤها **تنوع أنماط العيش** (IV، 20)[20]. وقد نشأت الثقافة عن ذلك لزومًا، وبدايةُ **الفن** أيضا: فنُّ تَزْجِيَة الوقت كما فنُّ الإبداع (IV، 21-22)[21]، بل والأهم من هذا ظهرت البدايات الأولى للنظام المدني والعدالة العمومية، ولا ريب أنّها كانت في البداية مقصورة فقط على كبح أعمال العنف الخطيرة التي لم يُتْرَك الثأر لها منذئذ للأفراد كما في حالة التوحش، بل عُهِدَ به إلى قوة شرعية حافظت على تماسك المجموع، أي إلى نوع من الحكم غير مُعَرَّضٍ هو نفسه لأي عمل من أعمال العنف (IV، 23-24)[22]. واعتبارًا من هذه الاستعدادات البدائية الأولى أمكن أن ينمو شيئًا فشيئًا الفن البشري بكامله، وتجلياتُه الأكثر فائدة هي **قابلية الاجتماع والأمن المدني**، وأمكن للعرق البشري أن يتكاثر وينتشر في كل مكان ابتداءً من مركز، مثل خلايا النحل، وذلك من خلال انتشار المزارعين الذين نالوا حظهم من التمدن. وقد شهدت هذه الحقبة أيضا ظهور **التفاوت** بين البشر، وهو الينبوع الفياض بالكثير من الشرور، ولكن بالكثير من الخيرات كذلك، وقد ازداد حِدَّةً فيما بعد.

وطالما ظَلَّ أقوام الرعاةِ الرحلِ، الذين لا يعترفون إلاّ بالله سيدًا، يحومون حول سكان المدن والفلاحين الذين جعلوا من إنسي سيدًا عليهم (حاكما)[23] (VI، 4)[24]، وطالما هم يُضَيِّقون عليهم ويعاملونهم معاملة الأعداء المبينين لكل حيازة إقليمية، فيكونون هم بدورهم عُرْضَةً لمقتهم، تظل الحربُ - أو خطرُها الدائم على الأقل - مُسْتَعِرةً فيما بينهما. وقد استطاع الشَّعْبان أن يتمتعا - في الداخل على الأقل - بخير الحرية الذي لا يُقَدَّرُ بثمن (ذلك أنّ تهديد الحرب مازال حتى اليوم الشيءَ الوحيدَ الذي يُخفِّفُ من غلواء الاستبداد، فالثروة ضرورية إلى اليوم لجعل دولةٍ ما قُوةً، ومن دون حريةٍ ليس ثمة صناعةٌ من شأنها أن

---

[20]. "فولدت **عادة يابال** الذي كان أبا لساكني الخيام ورعاة المواشي".

[21]. "واسم أخيه **يوبال** الذي كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. و**صِلَّةُ** أيضا ولدت **توبال قابيل** الضارب كل آلة من نحاس وحديد، وأخت **توبال قايين** هي **نعمة**".

[22]. "وقال **لامَك** لامرأتيه **عادة** و**صلة**: "اسمعا قولي يا امرأتي لامك، وأصغيا لكلامي. فإني قتلت رجلا لجرحي، وفتى لشدخي. إنه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف، وأما للامك فسبعة وسبعين".

[23]. مازال البدو الأعراب ينادون أنفسهم أبناء **شيخ** قديم، هو مؤسس قبيلتهم (بنو فلان). وهذا الشيخ ليس **سيدًا عليهم** بتاتًا، ولا يمكنه أن يمارس عليهم سلطانًا حسب هواه. فبين قومٍ رعاة لا أحد له ملكيةٌ ثابتة يتركها وراءه، وكل أسرة لا يلذ لها المقام تستطيع بسهولة أن تنفصل عن القبيلة كي تعزز قبيلة أخرى.

[24]. "وكان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم".

تنتج ثروةً. وعند شعبٍ فقيرٍ، يلزم العثور بدلا من هذه الثروة، على مشاركةٍ كبيرةٍ في الحفاظ على لُحْمَة الجماعة، وهذه المشاركة ليست بدورها ممكنةً إلا إذا تَمَّ الشعور فيها بالحرية). غير أن البذخ المتنامي عند سُكان المدن، وفن التودد تخصيصًا، والذي بفضله ألقت نساء المدن ببغايا الفيافي غير المتأنقات في الظل، كان لابد أن يشكلا مع الزمن طُعْماً قويًّا جاذبًا لهؤلاء الرعاة (VI، 2)[25] ودافعًا لهم إلى نسج صلاتٍ مع أولئك الناس، وجرِّهِمْ إلى بؤس المدن البراق. وقد أفضى اختلاط العشيرتين المتعاديتين حتى ذلك الحين، والذي وضع حدًّا نهائيًّا لخطر الحرب، وبالتالي لكل حريةٍ، أفضى إلى استبداد الطغاة الأشداء. ومن جهة أخرى أدى في هذا الطور من ثقافةٍ ناشئةٍ للتو إلى فجورٍ بلا حدود، في العبودية الأكثر إثارةً للاشمئزاز، ممزوج بكافة رذائل الحالة البدائية، فكان أن صرف حتمًا الجنس البشري عن السبيل الذي خطَّتْهُ الطبيعة ابتغاء تنمية استعداداته للخير، وبذلك صار غير جدير حتى بوجوده الذي هو وجودُ عِرْقٍ وجْهَتُهُ هي أن يبسط سلطانه على الأرض، لا أن يستمتع على نحو حيواني ويظل منغمسًا في نَيْرِ العبودية.

ملاحظة ختامية

يشعر الإنسان الذي يفكر بِغَمٍّ قد ينقلب إلى فساد خلقي، وذاك ما لا يعلم عنه الإنسان الذي لا يفكر أيَّ شيء. فهو غير راضٍ عن العناية التي تحكم سير الكون برمته عندما يقوم بجرد الشرور التي تثقل كاهل النوع البشري، دون أن يكون ثمة، على ما يبدو، أملٌ في تحَسُّنٍ آتٍ. والحال إنّه لأمرٌ بالغُ الأهمية أن **نكون راضين بالعناية** (حتى وإن كانت قد خَطَّتْ لنا في عالمنا الأرضي طريقًا شاقة جدًّا) كي نحافظ من جهة على بأسنا أمام الشدائد، وكي لا نُحَمِّل من جهة أخرى خطأنا الخاص للقدر، فَيَعْزُبَ بذلك عن بالنا أنّه خطأنا الخاص الذي لربما قد يكون السبب الوحيد لهذه الشرور كلها، ونُهْمِلَ العلاجَ المتمثّلَ في العمل على إصلاح أنفسنا.

يجب الاعتراف بأنّ أكبر البلايا التي ترهق الشعوب المتمدنة تأتينا من الحرب، والحق يقال ليس من الحرب الجاريةِ أو تلك التي جَرَتْ، بقدر ما تأتينا من **الإعداد** الذي لا يتوقف، لا بل يتزايد باطراد، للحرب القادمة. لهذا الغرض تُنْهِك الدولة كامل قواها وكل ثمار الثقافة التي من شأنها أن توظَّف لخلق ثقافة أكبر، وتتعرض الحرية لتضييق كبير من نواحي كثيرة، واحتراسُ الدولةِ الأمومي يستحيل بالنسبة إلى بعض أفرادها إلى متطلبات قاسية لا رحمة فيها، إلاّ أنّها مبررة بالخوف من خطر خارجي. ولكن هذه الثقافةَ، والاتحادَ الوثيقَ بين الطبقات داخل الجماعة ابتغاء التنمية المتبادلة لرفاههم، وكثافة السكان، وكذا درجةَ

[25]. "وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولِد لهم بنات، أنّ أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا."

الحريةِ المتبقيةِ على الرغم من القوانين المقيدة جدا، هل كان ذلك كلّه ليبقى لو لم يَنتزع الخوفُ الدائمُ من الحرب من قادة الدول أنفسهم احترامَ الإنسانية؟ يكفي النظر إلى الصين التي، بالنظر إلى موقعها، قد تخشى في أسوأ الأحوال من هجوم غير متوقع، وليس من أي عدو قوي، ولذلك اختفى هناك كل أثر للحرية. ففي مستوى الثقافة الذي وصل إليه الجنس البشري، تظل الحرب إذن وسيلة لا غنى عنها لإنماء هذه الثقافة، وبعد اكتمال هذه فقط (يعلم الله متى) يمكن لسلام دائم أن يكون مفيدًا لنا، وبهذا الاكتمال وحده كذلك سيكون ممكنًا. نحن أنفسنا إذن مسؤولون في هذا الصدد على الرغم من كل شيء عن الشرور التي نشتكي منها بمرارة، وإنّ الكتاب المقدس لعلى حق في تمثيلِ انصهار الشعوب في مجتمع واحد وتحررِهم التام من الخطر الخارجي عند البدايات الأولى لثقافتهم، على أنّه عائقٌ أمام كل تقدمٍ لاحقٍ للثقافة، وعلى أنّه انحطاطٌ لا يقبل إصلاحًا.

يتعلق الموضوع الثاني لعدم رضى البشر بتدبير الطبيعة فيما يخص قِصَر الحياة. لن نُحْسِنَ تقدير قيمة الحياة بلا ريب إن أمكننا بَعْدُ أن نتمنى أن تطول أكثر من طولها الفعلي: إذ لن تكون إلاّ تمديدًا للُعْبةٍ نكون فيها عرضة لمواجهة صعوبات جَمّة. لكن لا يمكن بالتأكيد توجيه الملامة لمَلَكةَ حُكْمٍ طفوليةٍ من خشيتها الموتَ دون أن تحب الحياة، فهي تجد مشقة في أن تشعر برضى مقبول في كل يوم من أيام حياتها، ومع ذلك تتمنى أن تمتد بها هذه الحياة كي تبدأ من جديد مِحْنتها. بيد أنّه لو فكرنا فقط في كثرة الهموم التي تعذبنا عندما يتعلق الأمر بإيجاد وسائل لتمضية حياة بالغة القصر، وفي كثرة المظالمِ المقترفةِ ابتغاء متعةٍ آتية مأمولة، وإن قَصُرَتْ، فيلزم أن نسلم على نحوٍ معقول بأنّه لو كان أمام البشر حياة تمتد ثمانمائة سنة فأكثر لأحس الأب بالكاد بالأمان أمام ابنه، أو الأخ أمام أخيه أو الصديق أمام صديقه، وأنّ رذائلَ نوعٍ بشري وُهِبَ هذا العمر المديد لابد وأن تصل إلى درجة لا يكون معها جديرًا بمآل أفضل من أن يغيبه طوفان شامل من على وجه الأرض. (VI، 12-13)[26].

الأمنية الثالثة، وهي بالأحرى حنين باطل (فنحن واعون بأنّ موضوع هذه الأمنية سيظل أبدًا خارج متناولنا)، تتجسد في طيف العصر الذهبي، الذي تغنى به الشعراء أيّما تَغَنٍّ، حيث من المفترض أن نتخلص من كل الحاجات المتخيلة التي يثيرها الترف فينا، وأن نلبي حاجات الطبيعة لا غير، وحيث يجب أن تسود بين البشر مساواةٌ تامة وسلمٌ دائمةٌ، وباختصار، حيث نستمتع استمتاعًا كاملا بحياة خالية من الهموم تُقضى في الخمول والتوهم أو تُمضى في المرح بين لعب الأطفال. وهذا الحنين هو ما يجعل

[26]. "ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض. فقال الله لنوح: "نهاية كل بشر قد أتت أمامي، لأنّ الأرض امتلأت ظلما منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض".

القصص الروبنسية[27] والرحلات إلى جزر بحار الجنوب جذابةً جدًّا، غير أنّها تقيم بالأساس الدليل على الضجر الذي يشعر به الإنسان الذي يفكر عند احتكاكه بحياة التمدن، لو بحث عن قيمة هذه في المتعة لا غير، فيقابلها بسحر الخمول عندما يأمره العقل صدفة بأن يضفي على الحياة قيمة من خلال أفعاله. إنّ تفاهة أمنية العودة إلى أزمنة البراءة والبساطة قد تمت البرهنة عليها بما فيه الكفاية، إذا كانت اللوحة المجملة أعلاه عن حالة البداوة قد علمتنا أنّ الإنسان ما كان بإمكانه أن يمكث فيها، لأنّها لا تكفيه، ثم إنّه سيكون أقل استعدادًا للعودة إليها يومًا ما، مع أنّ مصاعبه في الحالة الراهنة أمر يجب أن يعزوه إلى نفسه وإلى اختياره الخاص.

إنّ في عرض كهذا لتاريخ الإنسان فائدة ومنفعة له في تعلمه وتحسين حاله. فهذا العرض يبين له أنه يجب عليه أن لا يلوم العناية على البلايا التي أَلَمَّت به، وأن الصواب يُجانبه في نَسْب خطئه الخاص إلى خطيئة أصلية اقترفها أسلافه فجعلت من نزوع معين إلى اقتراف انتهاكات مماثلة نزوعًا وراثيًّا (ذلك أنّ أفعالاً صادرة عن إرادة جذرية لا يمكن أن يكون لها أثر وراثي)، ثم إنّه يبين أنّه يتعين عليه بالمقابل أن يعزو إلى نفسه بحكم القانون صنيعهم باعتباره فعلاً أقدم عليه هو نفسه، وأن يلقي على عاتقه بالكامل مسؤولية كل البلايا التي نتجت عن الاستعمال السيء لعقله، إذ يمكنه أن يتبين جيدًا أنه كان ليتصرف بالطريقة نفسها بالضبط في الظروف نفسها، وأنّه كان ليدشن استعمال العقل باستعمال سيء (بل ومضاد لإرشادات الطبيعة). ومتى صُحِّحَت الحجة الخاصة بالشر الخلقي لا يمكن للشرور الفيزيائية بالمعنى الدقيق إلاّ نادرًا أن تجعل الكفة تميل لصالحنا عند خصم أفضالنا وأوزارنا.

هاكم حصيلة محاولة فلسفية لكتابة التاريخ الأقدم للبشرية: الرضا بالعناية وبسير الأمور البشرية برمته، وهو سير لا يبدأ بالخير ليمضي إلى الشر، بل يجري ببطء من الأسوأ إلى الأحسن وفقاً لتقدم تدعو الطبيعة كل واحد منا إلى أن يسهم فيه من جانبه على قدر استطاعته.

[27]. نسبة إلى Robinson Crusoe

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com